مجلة الرائد

العدد : ١٨١ الموافق في صفر ١٤١٧ هجري ٦ / ١٩٩٦ ميلادي

كلمات في الصميم : الحلم سيد الأخلاق	بقلم : صلاح الدين بن إبراهيم

يمم سعيد وجهه شطر المدينة الصاخبة رغبة في متابعة دراسته الجامعية ، ولعله يحظى بعمل يسد حاجته ويخفف آلام أسرته الفقيرة القابعة في القرية النائية. في المدينة قُدّر للوافد الطموح أن يكون طالباً في معهد للغات ، أقامته جامعة إسلامية عريقة ، تَهَبُ من يتخرج من معاهدها أو كلياتها اعتزازاً كبيراً بفضل الانتساب إليها وحمل شهاداتها. وفي حيّ شعبي توثقت صلة سعيد بإمام مسجد آتاه الله عز وجل بسطة في البيان والصوت الجهوري ، فحفظ عن ظهر قلب كثيراً من خطبه وآرائه.

أنهى سعيد دراسته في معهد اللغة بتفوق أهّله للحصول على منحة دراسية في بلد أوروبي ، تتيح له البقاء في الغرب بضع سنين ، يرسّخ خلالها معرفته بلغة البلد المضيف. وشعر سعيد منذ وطئت قدمه أرض الغربة أنه غريب الروح والبدن ، وأن سلوكه وثقافته في خطر ، وأن عليه أن يأوي إلى حصن يعصمه من السهام القاتلة. واهتدى الحائر بعد لأيٍ إلى مكان متواضع اتخذه لفيف من المسلمين مسجداً ، وتوطدت صلته بـ " عبد الله " مدير الجمعية.

وراع سعيداً أن يرى في مصلى الجمعية أطفالاً يلعبون ، وترتفع أصواتهم أحياناً ويكثر ضجيجهم ، وربما حدث هذا وناس يصلون أو يتدارسون الحلال والحرام أو يتلون القرآن ، فيزيد هذا الصنيع سعيداً اشتعالاً. وحاول الوافد الجديد كتم انفعالاته ، ولكنه لم يستطع الصمود طويلاً أمام شعوره بواجب إنكار المنكر. وفي لقاء علمي جامع صاح سعيد بصوته الجهوري مخاطباً عبد الله : أنت يا عبد الله مسؤول أمام الله عز وجل عن هذا المنكر الذي يُفعل هنا ، ويفسد على الناس عبادتهم وأنت ساكت!! وما أظنك تجهل الحديث الشريف: " **جنبوا مساجدنا صبيانكم ومجانينكم**..." !!

أطرق سعيد هنيهة اصطرعت خلالها في نفسه مواقف متعددة: بمَ يجيب سعيداً؟!

* أيقول له: جزاك الله خيراً... سنطرد الأطفال من المصلى - الساحة الوحيدة الموجودة في الجمعية - وهو يعلم أن دليل سعيد غيرُ صحيح ، وأن هذا الإجراء ، في بلد أوروبي ، له تأثيرات تربوية خطيرة على ثقافة الأطفال؟!

* أم يقول له: أنت مخطئ يا سعيد! ، وعليك أن تتعلم قبل أن تتكلم؟! وهذا الكلام قد يوغر الصدر ويثير الفتنة ، فعهد التعرف إلى سعيد ليس بعيداً.

* أم يصبر عليه حتى يتعرف إلى الظروف ويقدر التصرفات ؟

وخشي عبد الله أن يسبقه أحد الحاضرين بجواب يفجّر العلاقة مع سعيد ، فبادر إلى الكلام فقال: إني أكبر غيرتك على تعاليم الإسلام يا سعيد ، وأرى أن دخول الأطفال إلى المسجد يجب أن يُدرس في ضوء جميع النصوص الواردة في هذه المسألة ، وفي إطار الإدراك الواعي لمقاصد الشريعة في معالجة مسائلنا الاجتماعية وغيرها في هذا العصر ، وأرجو أن تتاح لنا فرصة نكون فيها قادرين على دراسة هذا الموضوع ، وعسى أن يكون ذلك قريباً.

أمسك سعيد عن الكلام وفي قلبه أن عبد الله لا يريد أن يتخذ إجراءات تغضب أولياء الأطفال ، وأن كلامه الجميل يحمل في ثناياه إيثار مرضاة الناس على رضا الله عز وجل!!

ومرت الأيام... سعيدٌ يكرر اعتراضه ، وفي الجمع من يرغب في بيان عدم صحة دليل سعيد ، وعبد الله يصبّره ويصبرهم ، ويبحث عن طريقة توصله إلى قلب سعيد ، فيوضح له المسألة بأسلوب لا يجرح شعوره بالتفوق العلمي الذي ورثه من الجامعة.

ويشاء الله عز وجل أن يزور المدينة رجل قدمه راسخةٌ في علم الحديث ، وفي أمسية علمية أنكر سعيد ما يصنعه الأطفال وأغلظ في القول ، فبادر عبد الله إليه وأخذ بيده وقال له: تعالَ يا أخي نجلس إلى ضيفنا الشيخ ونبحث معه موضوع الأطفال!. قال سعيد: حسناً.

سأل عبد الله الشيخ: هل لديكم علم بحديث: " جنبوا مساجدنا صبيانكم ومجانينكم..." ؟

أجاب الشيخ: هذا الحديث لا تصح نسبته إلى النبي ﷺ فهو لا يتجاوز درجة " الضعيف "! وقد ذكره الألباني في " ضعيف الجامع الصغير" ورقمه ٢٦٣٥.

شُدِهَ سعيدٌ من الجواب ، وأخذه الحياء من الله تعالى من كل مكان ، وتمتم قائلاً: وا أسفاه!! كم جالدت من أجل إخراج الأطفال من المساجد اعتقاداً مني بصحة هذا الحديث ، الذي سمعته من رجال يُظنُّ بهم العلمُ بالسنة؟!. اللهم اغفر لي!.

وجد عبد الله الأبواب إلى قلب سعيد مفتحة ، فقال: لا تثريب عليك يا أُخيّ ، فالله يعفو عن كثير. ثم توجه بالكلام إلى الشيخ سائلاً: وما صحة حديث بريدة " **خطبنا رسول الله ﷺ فأقبل الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران ، يعثران ويقومان ، فنزل فأخذهما ، فصعد بهما ، ثم قال: صدق الله العظيم** { **إنما أموالكم وأولادكم فتنة** } (التغابن:١٥). **رأيت هذين فلم أصبر. ثم أخذ في الخطبة** " ؟.

قال الشيخ: هذا حديث صحيح رواه أصحاب السنن ، وهذا لفظ أبي داود. ويشهد لمعناه - دخول الصبيان المساجد - ما رواه البخاري ومسلم من قول النبي ﷺ :" **إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد**

إطالتها ، فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي ، مما أعلم من شدة وَجْدِ أمه من بكائه ". فلم ينهَ رسول الله ﷺ النساء عن إحضار أبنائهنّ معهنّ إلى المسجد ، على الرغم من إزعاج الرضيع بالبكاء.

وأدرك سعيد خطورة عدم التثبت من صحة الحديث عن رسول الله ﷺ وتوجه إلى عبد الله قائلاً: إني لأشكرك من أعماق قلبي يا عبد الله على صبرك الجميل ، ولله عليّ ألا أقوم مقاماً أنسب فيه إلى رسول الله ﷺ حديثاً لست متأكداً من صحته ، أو أشدد النكير على من خالفني في العلم أو إدراك مرامي النصوص ومقاصد الشريعة ، في التصرفات التي تحتاج إلى إعمال القواعد المستمدة من الوحي.

قال عبد الله: ولا يخفى عليك يا سعيد أن حضور الأطفال إلى المؤسسة الإسلامية في بلاد الغربة يحمل في طياته فوائد تربوية ، إذ يربطهم بالإسلام والمسلمين في بيئة تفكك هذا الارتباط. فوجود الأطفال بيننا يحرك فينا الشعور بالمسؤولية تجاههم. وأنا معك في ضرورة العمل على توفير أماكن تشبع رغبتهم في اللعب ضمن إطار المسجد ، ويوم نتمكن من إيجاد الغرف والأدوات المناسبة سنوجه الأطفال إلى ضرورة الهدوء في المصلى أكثر مما نفعل الآن. والحق يا أخي أن النهوض بالواجبات ، التي تزداد مع الزمن ، لن يتم إلا بتضافر الجهود البصيرة ، ونحن في أمس الحاجة إلى جهدك وعلمك في عملنا.

قال سعيد: اعتبرني جندياً صغيراً ، ومُرْني بما شئت من الخير ، وإني لأرجو أن أكفّر بعمل صالح ما سلف مني في حق الأطفال.

مكث سعيد برهة في المسجد ، ثم نهض فحيّا إخوانه وانصرف ، أما الحاضرون فقد شيعته عيونهم بإعجاب وإكبار. نظر عبد الله إلى إخوانه في هذه اللحظة الرائعة ، وقال:

نحن يا إخواني نعيش في زمان اختلطت فيه المصادر الشرعية بآراء البشر ، وعم الجهل بالنصوص وفقهها ، وسيطر التعصب للآراء على مشاعر وعلاقات معظم المسلمين ، وانتشرت الأحاديث المكذوبة في الكتب والخطب والدروس... الخ

أمام هذا الواقع الأليم... نحن بأمس الحاجة إلى الصبر الجميل... الصبر الذي يفهم الناس ويقدِّر إخلاصهم وظروفهم ، ويبحث بهدوء عن سُبل تقوم على الحكمة من أجل تغيير هذا الواقع المؤسف. وهذا يا إخواني يقتضي العضَّ بالنواجذ على قاعدة " إيثار كسب القلوب على كسب المواقف" في غير إثم.

شكر الحاضرون عبد الله ، وانفضَّ المجلس وفي القلوب لذة الحكمة في التصرف والموعظة الحسنة.